

## الطفولة المرحلة

يمكن أن نجد تشابها بين وفيات الأطفال في السنة الأولى من أعمارهم وبين إهمال الطفولة بعد ذلك أيام انصبا . فان وفيات الأطفال كثيرة جدا في بلادنا ومرجعها الى الجهل والفاقة . لأن الأم المصرية على ما تتصف به من حنان ورعاية لطفها تجهل المبادئ الأولية للصحة . وهى لذلك لا تعرف الخطر العظيم من الذبابة التى قد تقف على شفتى طفلها وتقل إليه جرائم نزلة معوية تقضى عليه . ثم أن العاقبة التى تشد وطأتها فى بعض البيئات تحول بينها وبين ما تحب من نظافة . وفى مثل هذه البيئات نجد أن الطفل انذى نجا من الموت حين كانت أبحاثه ترفرف صيه طيلة مدة الطفولة قد استحال بعد ذلك — للأسباب نفسها — الى صبي متشرد .

ذلك أن أبويه للجهل والفاقة يتركانه هملًا يعاشر صديقا كبر منه سنا فيتعلم منهم أسوأ العادات وياخذ عنهم شر انزعاجات . ثم هم بعجزان عن تعليمه أو تسليته بالسويات المفيدة التى لا تقوده الى مهاوى الأخلاق . وحين نذكر "للتشرد" يجب أن يتجه ذهننا نحو المدينة . أما اريف فلا يزال سليما . لأن الصبي الذى ينشأ فيه يجد مشاغل كثيرة فى الأعمال التى يربها أبواه . وهو حين يبلغ العاشرة أو الخامسة عشر يحسن تبعات مختلفة تهى منه رجلا مفيدا للجمع . والقذوة السيئة قليلة فى اريف .

ولكن الحال ليست كذلك فى المدن . لأن الطفل الذى يهمله أبواه والذى تقضى الفاقة طليما بتركه فى الزقاق أو الشارع لا يلبث أن يتعرف إلى كثير من عشاء السوء فيشاركهم فى التعلق بالترام وفى السرقات الصغيرة وفى الأخذ بلغتهم وميزان أخلاقهم . وهو ميزان تشيل فيه كمة الفضيلة وترجح كفة الرذيلة . ومن مثل هذا الصبي يتكون المجرم فى المستقبل .

ويجب أن ننظر حلال جرائم لأطفال إلى أسرة سيئة . فإن الأبوين اللذين تضطرها الفاقة إلى كسب اعيش خرح البيت يهملان الطفل الذى يتخبط فى هذه الدنيا وهو لا يزال غضا فينشأ نشأة سيئة لأنه يحس منذ الطفولة أنه لا يجد من المجتمع المحيط به أى مساعدة أو برأو تعاون . ثم قد تكون هذه الأسرة مفككة قد انفصلت الأم من الأب بطلاق أو بخصومة . فالطفل يرى شقاقا بين أبويه يثير فى نفسه أسوأ الاعتقادات عن معنى العدالة . ثم هو قد يعيش مع أبناء أبيه من أم أخرى أو مع أبناء أمه من أب آخر . وفى مثل هذه الظروف لا يجد الحب والرعاية اللذين يرشدان خطواته فى بحر الحياة الحافل بالأمواج . ولذلك كثيرا ما يجر هذا الطفل بينه وينشد السعادة الوهمية فى فوضى الشارع .

وخير أنواع العلاج هو دائما وعلى الدوام الوقاية . فإذا شئنا أن نتقى التشرذم في الأطفال فإن الوسيلة إلى ذلك يجب أن نقوده إلى إصلاح البيئة المنزلية . وذلك بأن نعمل إلى المسكن فنجعلها لائقة للسكنى . ولا نعنى المسكنى الصحية فقط مع قيمتها الكبرى بل نعنى المسكنى المدنية . وأن الطفل يجب أن يجد في البيت مغريات وسويات حتى لا يبعثه انسام على تركه والتجوال في الشارع ولعل القارئ يستغرب عندما نقول إن في الولايات المتحدة الأمريكية جمعيات تختص بنوع عجيب من العرو هو أن الأعضاء يعملون إلى منازل الزوج فيزخرفونها ويزينونها بالألوان الزاهية البراقة لكي يزبلوا عنها الكمد والقنامة حتى يجد فيها السكن ما يبهجهم . وما أحرانا بأن نفكر في مثل هذا البرلمسا كن فقرائنا في المدن .

ولكن الجو المنزلى لا يتحسن ويغرى الطفل بالبقاء إلا إذا كان الجو العائلي حسنا أيضا . وهذا يعنى في النهاية تعميم المحبة والرعاية بين أعضاء البيت وخاصة بين الزوجين . والطبقات الفقيرة عندنا تسرف في الطلاق . وإحصاءات الطلاق تزيد في المدن على ما هي عليه في الريف . ولهذا أثره السيئ في تنشئة الأطفال . إذ قل أن نجد صبيا في الإصلاحية دون أن يكون خلفه تاريخ طويل من شقاق عائلي أو طلاق أو انفصال بين أبويه .

والعائلة هي المجتمع الصغير الذي يعيش فيه الطفل . وهو يقيس الأخلاق بعد ذلك وبعد موازين الفضيلة والذميلة طبقا لما رأى ومارس في البيت . فإن كان البيت قدرا حافلا بالشقاق تناثر فيه ألفاظ السباب وأحيانا تحرك فيه الأيدي بالبطش فإن مما يتجاوز حدود المطلق أن نتظر طفلا حسنا من مثل هذا المجتمع .

فأولى وسائل الوقاية من انطفولة المهملة المنشرة هو المنزل الحسن أى العائلة الحسنة . ثم يلي ذلك العناية بتعليم الطفل في مدرسة حسنة . وقد عمدت المدارس الإلزامية في المدن ومنعت بعض الشر الذي كان ينتج عن تجوال الصبيان في الشوارع .

ولكن هناك حالات قد مضى فيها طور الوقاية . لأن الطفل للأسباب العديدة التي ذكرنا يكون قد استقر على التشرذم . فما هي وسائل علاجه ؟

إن العلاج المأثور هو الإصلاحية . وفي مصر ثلاث إصلاحيات اثنتان منهما للتصبيان وواحدة للبنات . والأوليان تسييران على نظام أقرب إلى السجن منه إلى المدرسة لأن الباب يغلَق في ساعة معينة وللصبيان شكة معينة لا تختلف كثيرا من الشكة التي يتخذها المساحين . أما إصلاحية بنات فأقرب إلى المنجأ أو المدرسة منها إلى السجن . ولكن الإصلاحيات الثلاث تابع مصلحة السجن . وقد عمدت هذه الإصلاحيات إلى تتبع نحر يبعثها بعد تركهم لها . وبأسف لم تجد أن النتيجة مشجعة . ومحكمة الأحداث هي التي تحكم بإرسال الصبي إلى الإصلاحية ولكن الازدحام الحاصر وقلة الأما كن فيها يجعل هذه الأحكام أحيانا عقيمة

لا يمكن تنفيذها . ويجوز للأب أن يضبط إحالة ابنه إلى الإصلاحية . وقد أنشئ مصنع لاستخدام صبيان الإصلاحيات ولكنه أيضا لا يفي الحاجة .

وعندنا محاكم للأحداث . وقضاة هذه المحاكم لا يمتزجون بتربية أو تعليم خاص في كلية الحقوق . ولكن نظريتهم لجرائم الصبيان يتغير ويتعدل بممارسة هؤلاء الصبيان . ونظن أن من الخير للصبيان وللقضاة ألا يتغير انقاضي وينقل إلى محكمة أخرى . وذلك لكي يتوفر على درس أحوال الصبيان وتفهم بواعث الجريمة عندهم . فإن الحكم بإرسال الصبي إلى الإصلاحية لأنه ارتكب بعض الجرائم أو لأن أمه يطلب ذلك ليس على الدرهم أفضل الأحكام . بل نظن أن انقاضي الذي يقضى في محاكم الأحداث يجب أن يعرف جميع المؤسسات التي تخدم الصبيان من إصلاحيات إلى أندية إلى ملاجئ إلى معسكرات . كما أنه يجب أن يكون على دراية كبيرة بأثر البيئة العائلية في الصبي . ومن هنا يتضح لنا أن القاضي في محاكم الأحداث هو مرب ومرشد اجتماعي أكثر مما هو قاض . كما نظن أن الإصلاحيات يجب أن تقطع صلتها بمصلحة السجون وتستتبع لوزارة المعارف حتى يشعر القائمون عليها أنهم يعلمون ويربون وأن خاطر العقوبة بعيد عن أذهانهم . وتحسن كلية الحقوق أيضا إذا هي أنشأت قسما خاصا للجرائم الصبيان .

وإذا تركنا الإصلاحيات فاننا نجد الملاجئ . وقد هبت الحكومة والأمة معا إلى إنشاء الملاجئ للصبيان عقب حركة نادت بها الصحف بشأن ملاجئ المبشرين . ولا تكاد تخلو مدينة كبيرة من ملجأ للصبيان يؤويهم ويعلمهم ويكسوهم . وهم في الأغلب يتامى . ونظن أن الحكومة تحس إذا هي أخرجت تقريرا سنويا عن هذه الملاجئ ومقدار لرق الذي تحققه في خدمة الصبيان مع نشر الصور الفوتوغرافية التي توضح المبنى وسائر الأحوال الصحية التي يعيش فيها الملاجئون من الصبيان .

وليس شك في أن المدارس الإلزامية والإصلاحيات والملاجئ قد عابجت إلى حد ما الطفولة المهمة في المدن ووقت الصبيان من التشرذ . وإن كان السائر في شوارع القاهرة لا يزال يجد مئات من الصبيان المشردين الذين نحار في تعليل حالتهم هذه ونساءل عن نثرته التي أبيتهم .

ومن الإصلاحات الجديدة التي أخذنا بها الأندية لتصبيان المحرومين . وفي حي العباسية بالقاهرة مادو ملجأ يسمى "مؤسسة الزفاف الملكي" يؤوى الصبيان في ذلك الحي ويعلمهم ويسليهم . وبه الآن تسعون صبيا . وهو نظام جديد ربما تأخذه الحكومة وتستبدله بالإصلاحيات . والصبيان في هذه المؤسسة يجدون العناية في معالجتهم من الأمراض الجسمية ويشقون ثقافة ذهنية وجسمية ويعاملون المعاملة التي تسعهم بالكرامة والعطف .

وحناك مجهودات شعبية لا علاقة للحكومة بها . منها محلة الرواد في السيدة زينب . وقد أنشأها طلبة جامعة فؤاد الأول بمعاونة الأساتذة . وفي هذه المحلة يجد الصبيان والأمهات تعليما وتسلية .

وكذلك أنشأت جمعية الشبان المسيحية نادى كوبرى الليمون للصبيان المحرومين . وهو ناد فقط . يقصد اليه الصبيان حيث يمدون الألعاب الرياضية وأحيانا تعرض لهم قصة سينمائية وتعاونهم الإدارة في التثقيف وتساعدهم على التوجيه الحرفي . ويحسن الأبرار إذا أرصدوا أموالهم على إنشاء مثل هذه الأندية والملاجئ .

الأندية والمدارس والملاجئ كلها مفيدة لوقاية الصبيان ومعالجتهم ولكن أنفع منها هو العائلة الحسنة التي يجد فيها الصبي أبوين يسودهما الوفاق والرخاء . لأن الخوصومة أو الطلاق تشتت الأبوين ويفصلان بينهما أو يملآن البيت بالشجار والنفار . والصبي في هذه الظروف يجد القدرة السيئة وقد يهرب من البيت ويبدأ تسكعه الذي قد يلزمه مدى حياته مع فترات الإصلاحية أو السجن .

وعند الألمان مثل يقول : ” الزوجان لا يتشاجران ولكه الفقير يتشاجر ” والمعنى أن قلة لرحاء وتوالى الصيق يجعل الأبوين أو الزوجين يتشاجران . والصبي الذي يعيش في هذه البيئة يخاف ويحاول الهرب وقد يؤدي به هذا إلى التسكع .

فإصلاح العائلة بالوفاق بين الزوجين والإقلال من الطلاق هما أول الأسباب لإصلاح الصبيان ما

### وصف الليل

وصف الضبي الليل بقوله :

رب	ليل	صهرته	مفكرا	في	امتداده
كلما	زدت	رعيه	زادنى	من	سواده
فتبينت	أنه	تائه	في	رفاده	
أو	تفانت	نجومه	فدا	في	حداده